وتحركت فيه الوراثة الحربية ؛ وبَصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّض لمعروفه وأفضى إليه بهمّه وشكا ما نزل به ثم قال : وإني قد أمَّلتك وظني بك أن تصطفيني لمنادمتك أو تلحقني بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فان لم تبلغ بي فالقليل الذي يعيش به المُقِلّ . وصمَّد فيه الشاب وصوَّب ثم قال له : أتحسن أن تلطُف في حاجتي ؟ قال : سأبلغ في حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة في هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . . ؟

فانتفض غضباً وهمَّ أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمَّل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعتْ به ظِنَّةُ التلصُّص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطي فمضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعاً

قالوا : ومر في طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفُجل والبصل والكرات وهي بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستفواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خرَّاجٌ ولاَّجٌ منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو في عينيه ، ثم هرَّت في وجهه هريراً منكراً واستَعْدَت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث ، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضُرب وحُبس وابتلي بالجنون وأرسل الى المارستان وساح في مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما يرى وما لا يرى ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه

* * *

ويا ليت من يدري بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدري ! فان الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصفع .....

(لنطا) مصطفى صادق الرافعي

فوز نسوي جديد

ملكات ووزيرات

بين الماضي والحاضر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهي ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب في عصرنا

ويقدم الينا التاريخ منذ العصور الغابرة نبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وألقيت اليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة ، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ ففي مصر الفرعونية ، وفي مملكة سبأ ، وفي تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة ؛ وفي مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هي كليوباترا تحاول رد الغزو الروماني عن مصر ، وتفتدي الهزيمة بالحياة ؛ ثم نرى في عصر الاسلام ملكة مصرية هي شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبي ؛ ونرى في الغرب ، وفي العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير أعظم الأمم الأوربية مثل ايزابيلا ملكة قشتالة ، وماري تيودور واليصابات ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا

وفي أيامنا تتبوأ عرش هولندة أميرة عظيمة هي الملكة ولهلمينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التي وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل في عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل ، فاذا ظفرت ببعض هذه الحقوق في بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيما لقضيتها

وقد وقع أخيرا في فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيما للحركة النسوية ؛ ففي الوزارة الفرنسية الجديدة التي يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مركز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية ، ومدام ايرين كوري العالمة الكيميائية

الشهيرة ، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التي اشتهرت بجهودها في سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة في تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسي الوزارة ؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لا زلن كباقي نساء فرنسا ، محرومات بنص الدستور من مزاولة أبسط الحقوق العامة ، أعني حق الانتخاب ، وهو حق تجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت ، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا في هذا الميدان عن باقي الأمم الديموقراطية العظيمة مثل انكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة ؛ وفي البرلمان الانكليزي اليوم عدد كبير من النسوة النائبات ، وفي الوزارة الانكليزية القائمة سيدة هي مس بونفيلد وزيرة العمل ؛ وفي أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم في كثير من الولايات ، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية ؛ وفي روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التي يتمتع بها الرجل ، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة في سائر الادارات والمجالس السوفيتية ، وأحياناً تشغل منصب السفارة ، مثل السيدة الكسندرا كولانتاي ، التي لبثت مدى حين سفيرة للروسيا في المكسيك ثم في السويد ؛ بل نرى المرأة تفوز في بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة ، كما حدث أخيراً في تركيا

* * *

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيماً لجهود المرأة ، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة ، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها ؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانيها ومطالبها ، فغزت جميع ميادين الحياة العامة ، ونفذت إلى معترك الوظائف والمهن الحرة ، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعي بسائر أنواعه ، ولم تعد تقتصر على مزاولة المهن السلمية الهادئة كالطب والمحاماة والصحافة ؛ بل غدت تنافس الرجل في أشق الأعمال وأخطرها ، كالهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية ، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل ضرباً من المستحيل

ولكن المرأة ما زالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا ، وعن مواطن المسئولية العامة ؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز في بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة ، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة ، فانها ما زالت بعيدة جدا عن التأثير في سير السياسة العليا ، وسير التشريع القومي ؛ وما زال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيدا عن تدخل المرأة أو اشرافها . وقد تمضي أجيال أخرى قبل أن تستطيع المرأة أن تغزو هذا الميدان غزوا حقيقياً ، أو أن تساهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ؛ فقد أتيح للمرأة ، في كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم ، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا ، ولكنها تحرم في عصرنا ، وهو عصر يقدسها وظفرها ، من تبوء مناصب الحكم والمسئولية . وبعبارة أخرى ، فقد سبق فوز المرأة بالملوكية ، فوزها بالوزارة أو ما يماثلها ؛ بيد أنه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية ؛ ذلك أن فوز المرأة بالملوكية لم يكن واجباً في عصر من العصور إلى مواهب ومزايا خاصة تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير ، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث ؛ وقد كانت حقوق الأسرة في الملك تتشح في العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الالهي ، وفي ظل هذا الحق المزعوم الذي كانت تقدسه الشعوب في تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الانصاف أن نقول إن المرأة استطاعت في ظل الملوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة ، فانه يجب ألا ننسى أن وجودها في هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعي ، ولم يكن نهاية في تطور النضال بينها وبين الرجل ، وإنه لم يكن أكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما بينا

على أن المرأة لم تقف في توجيه العروش والسياسة عند هذا الموطن الذي ارتفعت اليه في ظل الأسرة والحق الالهي ، بل استطاعت في ظروف كثيرة أن تصل بقوة عزمها ونفوذها إلى التأثير المباشر في توجيه الدول والحكومات ؛ ويقدم لنا التاريخ

أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء . ولم يخل التاريخ الاسلامي نفسه من أمثلة من هذا النوع ؛ ففي تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هي صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام ، وتؤثر في سياسة القصر والدولة ؛ فاذا توفي الحكم نراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ . وفي دولة بني عباد باشبيلية ، نرى جارية أخرى هي اعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة اشبيلية مدى حين . وفي أواخر دولة الاسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هي ثريا زوجة السلطان أبي الحسن النصري ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط غرناطة في أيدي النصارى . ويقدم الينا التاريخ الأوربي نماذج عديدة مدهشة من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة ، ونكتفي بأن نقدم من ذلك مثلين بارزين : أولهما مثل المركيزة دي بومبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وقد حلت في البلاط مكان الملكة الحقيقية ، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة ، تولي وتعزل ، وتأمر وتنهى ، وتؤثر في توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير ، وتقبض على مقاليد السلام والحرب . والمثل الثاني هو مثل البارونة باربارة فون كريدنر ، وهي سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدة لتعتنق حياة الزهد والتصوف ، وقصت علينا حياتها الأولى في كتاب عنوانه « فاليري » ، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرة وهي تحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا ، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول ، فأثرت في نفسه تأثيرا عظيما واستولت على مشاعره وتفكيره ؛ وكان يقضي معها كل يوم ساعات عديدة في الصلاة والشورى ؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة الغريبة في عقد « المعاهدة المقدسة » الشهيرة ، التي عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة ١٨١٥) وغرضها الظاهر تنظيم العلائق الدولية طبقاً للمبادئ المسيحية ، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب ، وغرضها الحقيق مقاومة النزعات والحركات الحرة ؛ وكان للبارونة فون كريدنر في الحث على عقدها أعظم أثر ، كما أنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية العديدة توضح لنا إلى أي مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ في الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة ؛ بيد أن هذا الفوز الذي يرجع دائماً إلى عوامل وظروف عرضية ، لم يكن ثمرة نضال أو تطور طبيعي ؛ أما اليوم فان المرأة تسير في ميدان النضال بخطوات حثيثة ، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفرا بعد ظفر ؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسي النيابة والوزارة ، فذلك لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب ، وأن تدلل على أهليتها لتوليها ، فهي إذن تسير في طريق طبيعي لا أثر فيه للطفرة أو العوامل العارضة التي رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحلم بها

ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذي يكاد يعتبر فوزاً رمزياً فقط ؛ ومن المحقق أنها ستعتز بهذا الفوز على ضآلته فتضاعف جهودها ؛ وإذا سارت الحوادث في طريقها ، وإذا لم تعقها العوامل والمؤثرات الرجعية ، فان المرأة ستصل في المستقبل القريب في تحقيق أمانيها إلى مدى يصعب اليوم ادراكه وتقديره ، وإن لم يك ثمة شك في أنه سيكون عظيما بعيد الأثر!

محمد عبد الله عنان